مساعد حبيقة السابق يكشف ملفات من الحرب اللبنانية (١)

أسعد شفتري: وجدت العربية عصية على الفهم واعتقدت أن الشريك في الوطن "شقيق أدنى"

□ بيروت - حازم الامين

■ الملف الذي بين ايدينا هو حكاية رمز من رموز الحرب اللبنانية والحياة، لم تتدخل سوى في اعادة توليف الرواية بعد ان قدمها صاحبها بتفاصيلها ووقائعها. حاولنا هنا خلق سياق لهذه الوقائع، وحاولنا ايضاً تقريب الرواية ودفعها الى ان تتماشى مع البيئة الاجتماعية والنفسية لراويها. دفعنا باتجاه تقديم الحرب على انها رواية صغيرة، صغيرة ليس بوقعها ونتائجها ولكنها صغيرة لانها حدث شخصي ايضاً. كان هذا امراً صعباً لسببين، الاول ان اسعد شفتري خاض الحرب ملتصقاً بجماعته ومندمجاً في اوهامها ومواجسها، والثاني ان اسعد شفتري نشأ وكبر في جهاز امني، ومن كانت هذه حالهم لا يجيدون الكلام، فهم دائماً خلف الصورة. على قدر ما هم حقيقتها وجوهرها.

اعدنا كتابة اجزاء من سيرة شفتري ولا ندعي هنا اننا انجزنا ملفاً من ملفات الحرب اللبنانية، فهذه الاخيرة لم تنتهِ بعد كرواية واحدة تتضمن الكم الكبير من الاحداث والوقائع والتأسي. ولم يتقدم احد بعد بما لديه. اسعد شفتري حاول هنا، لعلنا نوفق بمحاولات اخرى.

تحدث شفتري عن نشأته في ظل احزاب الشحن، وعن انخراطه في اسلاك الكتائب والقوات اللبنانية، روى آلية التحكم بمصائر المخطوفين وذلك السماح الذي حصل عليه من رجل دين فقرر له إعدام مئات المخطوفين، مشاريع تخفيض نسب الخصوبة لدى الطوائف الاخرى، والعلاقات العميقة التي ربطت بين قادة القوات اللبنانية.

وهنا في الحلقة الاولى نبدأ بعرض الاوضاع التي تأسست عليها شخصية شفتري، ونتابع في حلقات غد وبعد غد تفاصيل لم يسبق ان كشف عنها.

■ ولدت في بيروت في العام ١٩٥٥ في شارع مار مارون الواقع في وسط المدينة. وهو شارع صغير موازٍ لشارع غورو (الحمرا) ويتصل به عبر شارع لبنان الذي يقطع الشارعين عمودياً. وفي شارعنا حيث ولدت تقيم عائلات مسيحية متوسطة او اقل من متوسطة بقليل. لو يمكن التعرف بالبيت على هيئة الشارع، فمن المرجح ان سكانه ابخلوه الى منازلهم، او تحايلوا عليه. فالبيت شارعنا نظيفاً ومرتباً كما يليق بمواطنين صاعدين وميالين اموالهم. تلك كانت سمة لبنانية عامة في ذلك الوقت. فقد كان الناس يعيشون حال صعود دائمة.

المبنى الذي ولدت فيه ورثته والدتي عن والدها، اما والدي فقد كان موظفاً في احد المصارف، وهو تقاعد الآن. والداي كانا مسيحيين مؤمنين يترددان على الكنيسة ويرعيان في. ان برعايتنا انا وشقيقي وشقيقتي وفقاً لما يمليه عليهما ضميرهما كمؤمنين.

قضيت كل سنوات دراستي حتى البكالوريا في مدرسة الفرير (الجميزة) القريبة جداً من منزلنا. فقد تخرج فيها والدي، وهي اضافة الى جملتها الرسالة المسيحية كانت مدنية الانماط وتتمتع بمستوى تعليمي جيد.

بثبات انا اسعد شفتري (اسمي كما لقبني بشير الجميل لاحقاً) كبير اخوتي في اجواء مسيحية مشحونة. فقد كان اهلي مسيحيين ممارسين، اما على المستوى الاجتماعي والسياسي فقد كبرت في منطقة كانت تعد عرينا مسيحياً، واذكر ان الجو العام كان يعكس صوراً غريبة. فالمسلم مختلف عن المسيحي، يتجب كثيراً، وهو عروبي لا يؤمن بلبنان وطناً نهائياً. اضافة الى صور اخرى لم يكن ثمة من يحاول طردها او تعديلها.

الشارع الذي يقع فيه منزلنا، كان يطل على منطقة الاسواق التجارية، ويصل لسانه الى ساحة الشهداء، حيث كان يعبر يومياً الاف من البشر يبيعون ويشترون ويأكلون. ولكن اهلي اورثوني حذراً اجتماعياً وانكفاء جعلاني استنكف عن النزول الى الشارع وعن التشقق بثقافته، وربما اسهم في ذلك ايضاً كوني تلميذاً مواظباً في مدرسة الفرير التي غالباً ما تزرع في طلابها قيم المنزل والعائلة والطاعة. فانحصرت علاقاتي في الحي على اقارب يقيمون في شارع لبنان القريب، وعلى معارف اهلي المحدودين واولادهم.

لا تربطني صلات حميمة بذلك الماضي. لا ادري لماذا. فالصور التي في ذاكرتي عنه، اشبه بصور دخلت الى ذاكرتي من دون ان تشكل وجداناً او مشاعر. انها صور مستقلة ومنفصلة، صور فقط، ولم يسبق ان شعرت بانتماء كبير الى المكان الذي ولدت فيه، خصوصاً ان المنطقة التي يقع فيها شارعنا والشوارع المحاذية له، كانت منطقة باردة بالمعنى الاجتماعي. كانت هذه الشوارع وخصوصاً المسيحية منها تؤدي وظائف ثابتة. فحياة غالبية ساكنيها مؤطرة ومستقرة استقراراً حال دون اي تغيير. لا عائلات جديدة تأتي للسكن، فالايقاع واحد، تقيم العائلة وتتكون وما ان يكبر الاولاد حتى يغادروا تاركين اهلهم يسكنون في الشارع ويهرمون، ويبقون سنوات طويلة قبل ان توافيهم المنية.

لم احتك خلال طفولتي وشبابي الاول بمسلمين. كان معي في المدرسة بعض المسلمين، ومنهم من كان من اصدقائي القريبين، ولكن لم اكن اعرفهم كمسلمين، كنت اعرفهم كاشخاص واسماء. وفي المنزل كان شخص واحد من المسلمين يزورنا، كان شريك جدي وكانت زياراته متباعدة جداً.

لا ادرك تماماً من اين كانت تصلني اشارات الاحتقان والتحزب على رغم انكفائي عن الحي الذي كان مصدر مشاعر الشبان وشاحنها، ولكن احداً من حولي لم يكن يريد منع هذه المشاعر من الوصول الينا في منازلنا ومدارسنا. لقد نشأت في جو مختلف ومفارق. فانا مثلاً تعلمت التحدث بالفرنسية قبل تعلمي العربية، هذا الامر جعلني اكره اللغة العربية واجدها عصية على الفهم، الامر نفسه كنت اشعر به تجاه الموسيقى الشرقية.

كنا نحمل شخصيتين: واحدة لبنانية، وثانية تتطلع الى الغرب على انه الفكرة والنموذج والرمز الذي تطمح إليه، وكانت حكاية الكاثوليكية، وعندما علم الرباؤنا بذلك قاطعوا اهلي لفترة ثم عادوا ونسوا ما «اقترفنا».

تخرجت في المدرسة في العام ١٩٧١ وانتسبت الى الجامعة اليسوعية، إذ اخترت هندسة الإلكتروميكانيك وهو اختصاص صعب يتطلب تفرغاً كاملاً. كان لاختياري هذا الاختصاص صلة ما بشخصيتي. فبرودي العاطفي، وضعف علاقتي بمحيطي المادي كانا مناسبين لما اخترت ان اتعلم، وهما ولدا في طاقات اخرى، كالتنظيم الصارم والإصرار والفاعلية، ولهذه الأخيرة حكاية اخرى ربما استطعت ان امرّ عليها في اكثر من محطة.

في سنواتي الاولى في الجامعة لم افكر بالسياسة، فاختصاصي لم يكن يسمح لي بهذا الترف. كل ما اذكره حتى العام ١٩٧٣ انه كانت في صفنا طالبة منتمية الى منظمة العمل الشيوعي، وبعض الطلاب الشباب، واعني بالسياسة هنا، الانخراط في خيار سياسي، والانخراط في العمل الحزبي، وعدم إقبالي على هذا الامر لا يعني طبعاً عدم انفعالي مع الاحداث العامة. فكل سنة كانت تمر كانت تزيد فيها ميولي الدفاعية ومشاعري بان وجودنا كمسيحيين مهدد. واستمرت هذه الحال حتى العام ١٩٧٣، إذ وقعت في تلك السنة المعركة الشهيرة بين الجيش اللبناني والفلسطينيين، وكانت هذه المعركة بالنسبة إلي الانطلاقة التي من خلالها شعرت ان الوضع بات يتطلب تدخلاً مباشراً منا جميعاً.

> اتصلنا بادارة احدى دور السينما وأبلغناها بوجود عبوة ناسفة بداخلها. وبعد دقائق وهو الوقت الذي يستغرقه هروب الناس من القاعة رحنا نفتش محيط السينما. لم يكن مصدر هذا العنف عبثاً خالصاً. فقد كان له في وجداني عناصر تأسس عليها.

انتظرت حتى العام ١٩٧٤، وتوجهت انا وشقيقي الاصغر واقارب لي الى بيت الكتائب في الرميل. اخترنا كتائب الرميل لان قريباً لنا كان من بين العناصر الذين يعملون فيه. التقينا بهذا القريب فنصحنا كوننا طلاباً بالتوجه الى بيت الكتائب في الاشرفية، إذ كانت غالبية المنتمين الى كتائب الرميل من «قبضايات» الاحياء، بينما كان بيت الاشرفية يعج بالطلاب والمثقفين، ونصحنا قريبنا، بان نتحمل فور وصولنا الى بيت الاشرفية بشاب من آل الجميل، هو نبيل رئيس حزب الكتائب، ويدعى بشير.

الدخول المباشر

ذهبنا الى بيت الاشرفية وسجلنا اسماءنا، والتقينا بشير الذي وصلنا بالفرد مسائي وروجيه ديب، وكانا في حينه مسؤولين طالبيين، وخضعنا فوراً الى دورة تثقيف حزبي، والتي حاول منعنا من الانتساب الى الكتائب، وقال لنا انه حاول ان ينتمي الى حزب الكتائب خلال احداث العام ١٩٥٨، ولكنه تراجع وندم. لم يكن لديه شيء واضح ضد الكتائب باستثناء انهم حزب، وكانت قناعته المستمدة من قيم دينية واجتماعية تدفعه الى الاعتقاد ان الانتماء الى الاحزاب امر غير مجد ولم تتعود عليه في العائلة.

العام الذي سبق اشتعال الحرب اللبنانية وهو الفترة التي انتميت فيها الى حزب الكتائب، لم يبق له في ذاكرتي اي اثر. الذكريات والحياة الحزبية التي حفرت في هذه الذاكرة تبدأ من تاريخ اندلاع الحرب. العام ١٩٧٤ كان عام «طق حنك» وتسلية وتعبئة في احسن الاحوال. ربما ازدادت قناعتنا في هذا العام بان لبنان بلد نشأ ليكون للمسيحيين وعلى قياسهم. تكرست قناعتنا في هذا العام بان الشريك في الوطن شقيق ادنى Petit frère مثلما على حد قول احد الزعماء السياسيين في حينها.

في ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ بدأت الحرب. وكانت فكرة تدخلي المباشر فيها اختمرت في راسي وفور سماعي بالاحداث، توجهت الى بيت الكتائب في الاشرفية ووضعت نفسي بتصرف الحزب كما فعل الاف مثلي. لم اخضع في البداية لدورات عسكرية جدية فقد خضعت لدورة متواضعة لم تدم اكثر من ايام معدودة.

في هذه الفترة قيل لنا ان الحزب بحاجة الى شبان يهتمون باللاسلكي وبسلاح الإشارة. ولانني كنت على وشك التخرج في كلية الهندسة، شعرت بالميل الى العمل في هذا الاختصاص.

شكلنا مجموعة من شبان متعلمين اختيروا في شكل دقيق، لان العمل في سلاح الإشارة يتطلب تتميراً باللغة الفرنسية وشيئاً فشيئاً شرعنا نربط بيوت الكتائب بشبكة من اجهزة اللاسلكي، والتحق بنا خبراء من الجيش اللبناني عملوا في التشفير وفي فك الشيفرات، واسسنا مركزاً للتنصت، وصار في إمكاننا التنصت على الفلسطينيين والاحزاب الاخرى. توليت في هذه الفترة تركيب اجهزة اللاسلكي وتحديد مواقع هوائياتها، مستفيداً مما كسبته من معارف في دراستي، إذ كنت طالباً في الجامعة اليسوعية. وكان لتوزيع اجهزة اللاسلكي على بيوت الكتائب دور في انتشار سلطة بشير الجميل وتمددها الى خارج منطقة الاشرفية الكتائبية، اذ قامت منطقة الاشرفية بتوزيع هذه الاجهزة على نقطتها في كل من الرميل والدكوانة وسن الفيل والحدث وفرن الشباك والمقاطعة الرابعة - الاسواق التجارية، وتحول هو تلقائياً الى مركز لسلاح الاشارة. واملى وجود سلاح الاشارة ضرورة وجود غرفة عمليات مركزية، وهذا الامر كان مستقلاً عن التركيبة الكلاسيكية الكتائبية. وهنا بدأت تظهر ملامح استقلال بشير عن الحزب.

عملي في جهاز الإشارة ابقاني بعيداً الى حد ما من خطوط التماس والحرب المباشرة. وهذا الإبتعاد كان يحاكي ترفعي النفسي والاجتماعي عن الانغماس في شعبوية لم اترب على قبولها. فالحرب تعني سيارة ثقافة لم اجرؤ نفسي لقبولها. من جهة، انا تلميذ مدرسة الفرير والجامعة اليسوعية وابن العائلة المؤمنة والمحترفة، ولكن من جهة اخرى فإن عناصر تشكلني هذه كانت تحوي اسباب انخراطي في الحرب.

في هذه الفترة، اي بين عامي ١٩٧٥ و١٩٧٧، وبينما انا منغمس في سلاح الإشارة اتابع تجهيز بيوت الكتائب بالمعدات اللازمة، واتنقل بين مباني الاشرفية لاختيار المناسب منها لوضع الهوائيات، تشكلت مجموعة مقاتلة تطوع فيها بعض ابناء النخب الاقتصادية والاجتماعية من ابناء الاشرفية. واطلق عناصر هذه المجموعة على انفسهم اسم «قوى تحرير لبنان» واستبدل هؤلاء اسماءهم باسماء وهمية حفاظاً على مصالحهم واعمالهم. رغب عناصر هذه المجموعة بالمشاركة في الحرب الى جانب حزب الكتائب. كان بينهم اطباء ومهندسون ورجال اعمال ارادوا المشاركة في الحرب لكنهم لم يرغبوا بالاختلاط بالآخرين. طلبوا من حزب الكتائب تسليمهم مواقع مستقلة على محاور القتال، فاستجاب الحزب وعهد إليهم ببعض المباني المواجهة في منطقة الاسواق التجارية. كان لي بين عناصر هذه المجموعة اصدقاء كثر، وكان تنصلهم من المشاركة في الحرب الى جانب المقاتلين الكتائبيين، وحرصهم على الاستقلال بمواقعهم القتالية سبباً اضافياً لاختار مشاركتهم القتال المباشر لليال عدة. لم يكن سبب استقلالهم بمحورهم سياسياً وإنما كان اجتماعياً، فهم لا يرغبون بالاختلاط بالفقراء وبفئة المقاتلين، ولكنهم بموازاة ذلك كانوا مقاتلين اشداء، وتمكنوا من تنفيذ المهمات التي طلبت منهم. وكانت مشاركتي اياهم القتال باكورة مشاركاتي في الحروب الكثيرة التي دارت من حولي. من الصور التي بقيت في ذهني عن مشاركتي هذه المجموعة في الحرب تلك الليلة التي قضيتها معها في منطقة الفنادق الى جانب بندقيتي الكلاشنيكوف التي سبق ان اشتريتها بمبلغ ٦٧٥ ليرة لبنانية مع الف طلقة. إذ طلب مني في تلك الليلة ان اراقب ومن على شرفة عالية الطريق المقابل حيث كان «المرابطون» متحصنين، وكانت الاوامر بان اطلق النار على اي سيارة او جسم يتحرك. انتظرت طوال الليل ولم اشاهد احداً، ولكن في الساعة الخامسة والنصف فجراً وصلت الى هذه الطريق سيارة تاكسي تقل عائلة مؤلفة من رجال ونساء واطفال مدنيين. اتصلت لاعرف ماذا افعل، فكان الجواب الا اطلق النار. إذ كانت اللجنة الامنية توصلت في حينه الى اتفاق لوقف اطلاق النار ولكنهم نسوا ان يبلغونا به.

سلاح المدفعية

في هذه الفترة ايضاً خضعت لدورة مدفعية قام في اثنائها ضباط من الجيش اللبناني بتدريبنا على مدافع الهاون ٨٢ ملم و١٢٠ ملم في الاشرفية. اخترت للمشاركة في هذه الدورة كوني مهندساً وبالتالي استطيع ان احسب الاحداثيات التي يتطلبها العمل على المدفعية.

استعملت المدافع اكثر من مرة، وهي من الامور التي لا ازال اذكرها واتأسف عليها. إذ لم يكن قصفنا المناطق الاخرى عسكرياً ولا سياسياً، كان ضرباً من العبث والعنف المجرد. في حينه لم يكن ثمة تنظيم يحدد الاهداف، ولم تكن هناك شعبة عمليات. كانت ثانيتنا معلومات ان ثمة هجوماً سيحصل على المحور، وكان كل مريض مدفعية يخدم المنطقة الشابعة له. فالمقاتلون ينتصبون المدفع في ساحة صغيرة، ويتلون اوامر المقاتلين على مناريسيد ثمة صيغة ثانية للقصف، وهي القصف بالدفعات، جواباً على قصف مناطقنا. فيكفي ان نعلم ان هذه الساعة هي وقت خروج الناس من السينما مثلاً حتى نقصف محيطها. اذكر مرة اننا قمنا بعمل لا اعرف حتى الآن نتيجته. اتصلنا بصالة سينما وقلنا لإدارتها ان ثمة قنبلة ستنفجر داخل القاعة، وانتظرنا خمس دقائق، وهو الوقت الذي توقعناه لخروج الناس الهاربين من قاعة العرض، وبدأنا نقصف محيط السينما.

لم يكن مصدر هذا العنف عبثاً خالصاً، فقد كان له في وجداني عناصر تأسس عليها. كانت القضية الاساسية تبيح كل محظور، وكانت تبيح لنا ان نفعل ما نشاء.

غداً: من يحدد مصائر المخطوفين

بشير الجميل النموذج الاول.

> اتصلنا بادارة احدى دور السينما وأبلغناها بوجود عبوة ناسفة بداخلها. وبعد دقائق وهو الوقت الذي يستغرقه هروب الناس من القاعة رحنا نفتش محيط السينما. لم يكن مصدر هذا العنف عبثاً خالصاً. فقد كان له في وجداني عناصر تأسس عليها.

نص الاعتذار الذي وجهه شفتري الى اللبنانيين قبل نحو سنتين

مصالحة مع الذات قبل المصالحات مع الآخرين

■ لا اريد ان يفهم موقفي هذا كردة فعل انما كفعل، بعد فعل شيء، اردت ان اقوم به منذ مدة طويلة، حوالى العشر سنوات، ولكنني لم امتلك الشجاعة لفعل ذلك خوفاً من ان يعتبرني الناس مجنوناً او ساذجاً.

اود اليوم ان اعتذر:

اعتذر من جميع الاشخاص الذين كنت جلادهم او كانوا ضحيتي، أن علموا او لم يعلموا بذلك، وان كنت اعرفهم او لا، ان تم ذلك مباشرة او بواسطة وسطاء.

اعتذر عن بشاعة الحرب وما قمت به خلال الحرب الاهلية وذلك باسم لبنان، او «القضية» او «المسيحية».

اعتذر عن اعتباري لنفسي ممثلاً لهذه المفاهيم.

اعتذر عن اعتباري لنفسي إلهاً قادراً لوحدي على ترتيب امور بيتي وامور بيوت الآخرين بشتى الطرق حتى ولو بالقتل.

اعتذر لانني وانا ادافع عن ما كنت اعتقد انه المسيحية في لبنان، لم امارس ابداً المسيحية الحقيقية التي هي حب الآخر ومحبة كلية لا تعرف العنف.

اعتذر عن تعصبي، اعتذر لانني اعتبرت دائماً انني ورفاقي دائماً على حق باسم «قضية» ما.

اعتذر عن ما يعرفه البعض حتى ولو كان يجهله الكثيرون.

اعتذر عن جو الاشمئزاز الذي قد يكون نشأ عن ما قيل ويقال وسيقال في كتب انكليزية او فرنسية او عربية او حوارات تلفزيونية ان كان صحيحاً او خاطئاً او مركباً. ان كان معروفاً او مجهولاً، شمله قانون العفو او لم يشمله، مر عليه الزمن او لم يمر.

اريد ايضاً ان اقول انني سامحت منذ زمن طويل كل من اساء الي والى اهلي وصحبي مباشرة، او غير مباشرة، خلال هذه الحرب الاهلية البشعة.

وحدها هذه الطريق هي التي ستولد تصنع مني انساناً جديداً جاهزاً لمرحلة بعد الحرب، مرحلة البناء، مرحلة اعادة ما دمر، والاهم مرحلة التعويض عن ما صنع خلال سنين الحرب الطويلة.

ارجو ان يفهم موقفي هذا ليس كموقف ضعف انما كموقف مسؤول، وليس لهذا علاقة باية تدابير قد يقوم بها القضاء اللبناني باسم الشعب اللبناني الذي اجل واحترم.

ان الصورة المشوهة التي وصلت بعد ١٥ سنة من الحرب المريرة هي ان كل من شارك فيها ومن اي طرف كان هو مجرم حرب.

اعتذر عما ايضاً من هؤلاء الشرفاء، من كل الاطراف والآراء السياسية الذين وضعوا حياتهم على اكفهم ومنهم من قدمها من اجل تصور معين لهذا الوطن، اكانوا على صواب ام لم يكونوا، ومن كان يدري حينها اين الصواب؟

ان تصرف قلة فاجرة مدّ صورة البشاعة على الجميع وصمم من الجميع مجرمي حرب.

املي ان يفهم نداءي هذا، وكأنه السبيل الوحيد للخروج الحقيقي من المحنة اللبنانية، عندما تطهر فيه النفوس من الاحقاد والضغائن، ومن الام الماضي، مصالحة حقيقية مع الذات قبل المصالحات مع الآخرين.

املي اخيراً ان يساعدني ربي على شفاء الجراح في نفسي وفي نفوس الآخرين.

اسعد شفتري

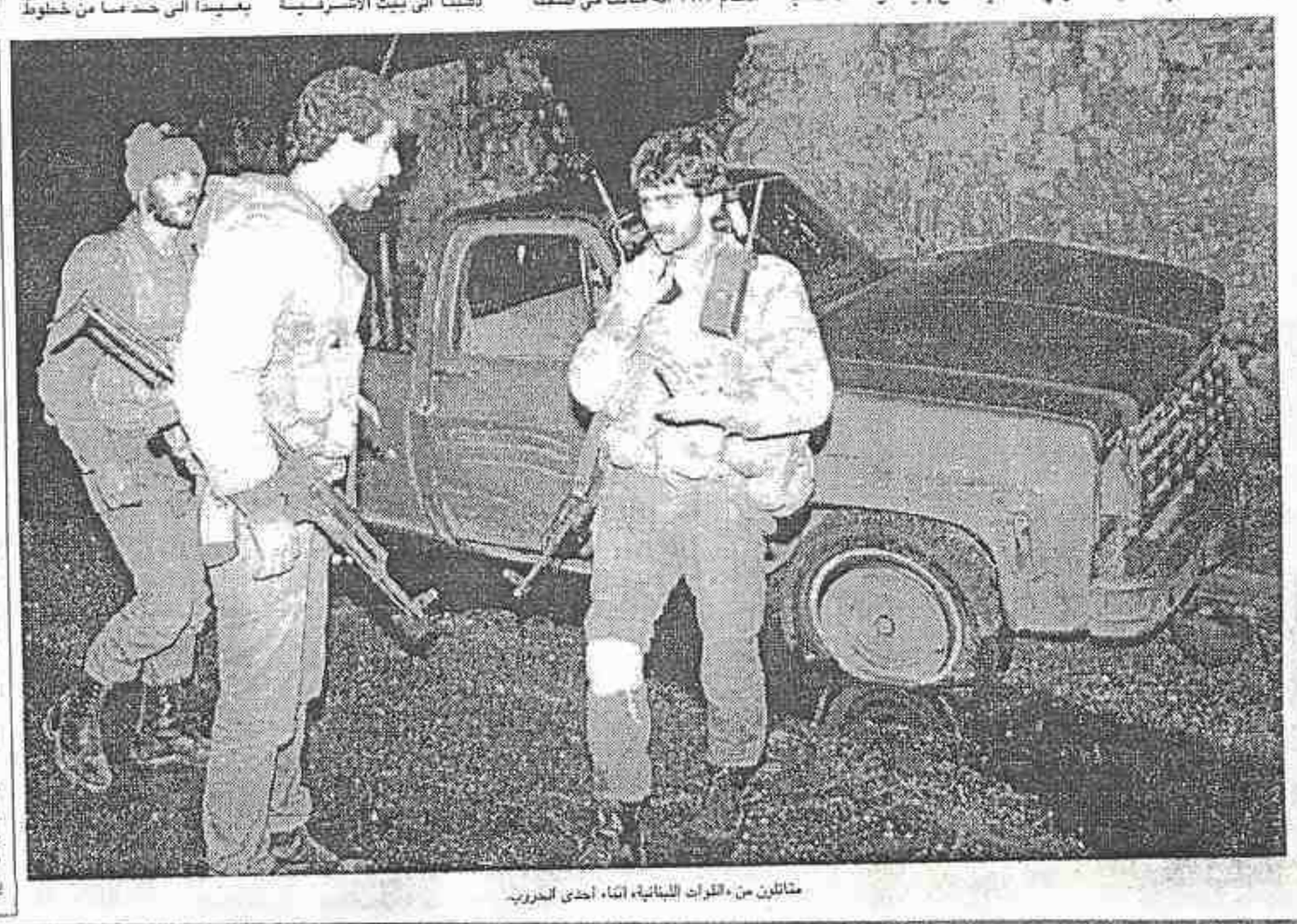

مقاتلون من «القوات اللبنانية» اثناء احدى الحروب.